انتشارُ مُعتقدات الإباضيَّة في المغرب الأوسط وعلاقتها بالمَشرق (٩٣هـ/٧١١م -١٤٠هـ/ ٧٥٧م)

The spread of Ibadi beliefs in the central Maghreb and its relationship with the Levant (93 AH/711 AD - 140 AH/757 AD)

د.عبد الرؤوف أحمد عرسان جرار
أستاذ مشارك
فرع /جامعة القدس المفتوحة
فلسطين/جنين

Dr. Abd Al-Raouf -A- Jarrar
Associate Professor
Al-Quds open university
/Palestine

ajarar@qou.edu

تاريخ الاستلام ٢٠٢٤/٤/٢٨ تاريخ القبول ٢٠٢٤/٥/٢٦

الكلمات المفتاحية: الإباضية ، معتقدات، الخوارج، المغرب ، المشرق،جابربن زيد.

Keywords: Ibadi,beliefs, Kharijites, Morocco, Levant,Jabir bin Zaid.

ملخص:

يَعرض البحثُ الحاليُّ انتشار مُعتقدات الإباضيَّة في بلاد المغرب، ويكشفُ عن علاقتها بالمشرق العربيّ في النِّصف الثَّاني والأخير من الحكم الاموي، وبدايات الدَّولة العباسيَّة، الَّتي سيطرت على العالم الإسلاميّ.

تعدُّ معتقدات الإباضيَّة من أكثر مُعتقدات الخوارج اعتدالاً وتسامُحاً مع مخالفيهم من الفِرَقِ الأُخرى، وهم الأقربُ فكرًا ومعتقدًا إلى أهل السُّنَّة والجماعة ، وهم الأقلُّ غُلوًّا وتَطرُّفا، لذلك، دامت معتقداتهم، وبقي وجودهم حافلا إلى الوقت الحاضر، فلم ينقرضوا – كما انقرضتِ الفِرَقُ المتطرِّفة الأُخرى، لأَجْلَ ذلكَ، برز منهم علماءُ كبار وفقهاءُ في علوم الدِّين والحديث.

ويرجعُ الفضل في تنظيم الدَّعوة الإباضيَّة وترتيبها إلى جابرِ بنِ زيدٍ، وإلى سياسته الذَّكيَّة، المتمثّلة في البُعد عن التَّطرُّفِ، واستعمال التّقية الدِّينيَّة، وحُسْنِ اختيار الدُّعاة، الذين كان يرسِلُهم إلى الأقاليم الإسلاميَّة، كذلك، نجح جابرٌ في ربط أهداف الدّعوة بأهداف كثير من النَّاس، الذين كانوا يعارضونَ الحُكم الأمويَّ،

الأمر الذي مكنَّه من اجتذاب عناصـــر مختلفة من قبائلَ وأجناسٍ متعدّدة، فأصـــبحتِ الدَّعوة الإباضيَّة حركةً معارضةً شاملةً لنظام الحكم، على الرَّغم من كونها سريّة .

تسلَّمَ – بعد وفاة جابر– زمامَ الدَّعوة أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التَّميمي، وهو أحد أعلام تلاميذ جابر بن زيد، الذي أسس في البصرة مكاناً للدِّراساتِ الإباضيَّة، أشرف عليه بنفسه، وأخذ يعلِّم الطلبة، ويدرِّبُهم على نشر الدَّعوة نشراً سليماً فاعلاً، ثم يبعث دعاة – كان قد أَطلق عليهم اسم حملة العلم– إلى مختلف الاقاليم، وكان يزوِّدُهم بمعلومات مهمّة تساعدهم على أن يقوموا بعمل سياسي ما ، وفي الوقت نفسه، نشر الدَّعوة الإباضية سرًّا، إلى أنْ تصبح الظروف ملائمةً ومهيأةً لهم لنشرها علانية، فانتشرت دعوتهم في بلاد فارس، وزنجبار وبلاد المغرب، ويُرجِعُ المؤرِّخونَ سبب نجاح الإباضيّة وظهورها وانتشارها في المغرب إلى نشاط الدّعاة المَشارقة، الّذين وصلوا إلى المغرب في القرن الأوّل الهجريّ / السَّابع الميلادي، فقد أخذوا في نشـــر دعواتهم بين قبائل البربر الســـاخطة على الدولة، .وكان أهم نتائج الدعوة الإباضيّة قيام الدَّولة الرستمية في بلاد المغرب على يد عبد الرحمن بن رستم، أحد تلاميذ أبي عبيدة، الذي كان من حملة العلم ، بعد مقتل زميله أبي الخطاب على يد القائد العباسيّ محمد بن الأشعث .

Abstract:

The current research presents the spread of Ibadi beliefs in the Maghreb, and reveals their relationship with the Arab East in the second and last half of the Umayyad period, and the beginnings of the Abbasid state, which dominated the Islamic world. The Ibadi beliefs are among the most moderate and tolerant of the Kharijite beliefs with those who oppose them from other sects. They are the closest in thought and belief to the Sunnis and the community, and they are the least extremist and extremist. Therefore, their beliefs lasted, and their presence remained abundant to the present time, and they did not become extinct - as the other extremist sects became extinct. Because of this, outstanding scholars and jurists in the sciences of religion and hadith emerged from among them, and their fame became widespread. The credit for organizing and arranging the Ibadi call - in the manner in which it was famous - is attributed to Jabir ibn Zaid, and to his intelligent policy, represented in staying away from extremism, using religious piety, and choosing well the preachers whom he sent to the Islamic regions. Likewise, Jabir succeeded in linking The goals of the call were similar to the goals of many people who were opposed to the Umayyad rule,

which enabled it to attract different elements from multiple tribes and races. Thus, the Ibadi call became a comprehensive opposition movement to the ruling system, despite it being secret. After the death of Jabir, Abu Ubaidah took over the reins of the call. Muslim bin Abi Karima al-Tamimi, one of the most prominent students of Jabir bin Zaid, who established an institute for Ibadi studies in Basra, and he supervised it, taught the students, and trained them to spread the call in a sound and effective way, then send preachers - whom he called bearers of knowledge - To various countries, he provided them with important information that would help them carry out some political action, and at the same time, he spread the Ibadi call secretly, until conditions became appropriate and ready for them to spread it publicly, so their call spread in Persia, Zanzibar and the Maghreb, and historians attribute the reason for the success of the Ibadi Its emergence and spread in Morocco was due to the activity of the Eastern preachers, who arrived in Morocco in the first century AH (the seventh century AD). They began to spread their calls among the Berber tribes dissatisfied with the state. The most important results of the Ibadi call was the establishment of the Rustamid state in the Maghreb at the hands of Abd al-Rahman. Ibn Rustam, one of Abu Ubaidah's students, who was a scholar, after the killing of his colleague Abu Al-Khattab at the hands of the Abbasid leader Muhammad bin Al-Ash'ath.

تمهيد:

ثار الخوارج في المَشرق الإسلاميّ كثيراً، وضربوا مثلاً أعلى في الشَّجاعة والإقدام، ولكنّهم عجزوا عن تحقيق أهدافهم، وأصبحوا هدفاً للبطش والاضطهاد، والقتل, و التنكيل (الطبري،٦،١٩٨٧/311)، وهذا حوَّل حركة الخوارج من وصفها حركةً سياسيَّةً دينيَّة خالصةً في أول عهدها، إلى حركةٍ عدوانيَّة مُعارضة للدَّولة المُعاصرة، كانت قد جمعتِ العقيدة بالمسائل الفقهيّة والمبادئ السِّياسيَّة,(الريس،٥٤،١٩٦٠) وقد تطوّرت احكام الخوارج الدينيّة العَقَدِيّة في العهديْن الأمويّ والعباسيّ في المشرق، وكان لهذه العقائد أثرٌ واضحٌ في النَّزعة العقليّة عند المذاهب السُّنيَّة، وفي الوقتِ عينه، خضعتِ العقائد والأصول الفقهيّة عند فِرَقِ الخوارج الموصوفةِ بالاعتدال لتأثيرات مذهب أهل السنة؛(بل،١١٤،١٩٩٠) الأمر الذي جعل عدداً كبيراً من الخوارج الإباضية والصّفريّة يلجؤون إلى بلاد المغرب؛ بحثًا عنِ الأمن، وبعيداً عن أيدي الأمويين ثُمَّ العباسيين, وتجنُّباً لتعرُّضهم إلى الأذى.(أبومصطفى،٩٤،١٩٩٧–٩٥)ومن الجدير بيانه في هذا السّياق، أنَّ ثمّة منازعاتٍ كثيرةً وشديدةً بين الأحزاب السياسية

في المشرق طوالَ العصر الأموي كانت قد قضت على بعض رجال الدولة، وأثارتِ العصبيّة القبليّة، فكَثُرَ الاضطهادُ، وتعدَّدت الخُصومات والمنازعات، وكان للأمويين جماعاتٌ عظيمةٌ من الأعداءِ السِّياسيين، والمعارضين لنظامهم، والخارجين عن سلطة دولتهم، فكانوا لا يتوقفونَ عن الخروج على النظام الحاكم ، ولا يتوقَّفُ الأمويونَ عن ملاحقتهم بالأذى, فكَثُرَ فِرار هؤلاء من بلادهم، والتماسهم الأمان في ناحية بعيدة عن مركز الدولة، وكان المغربُ لبعده عن مركز الخلافة (الجيلالى،٢،١٥٢/١٩٨٢)من النواحي التي لاذوا إليها؛ طلباً للأمن والسلم، نظرًا لاتساع أرضه، وتشعُّب مسالكه، وكثرة قبائله, ووعرة طرقه، وكانَ الكثير من أهل هذه الأنحاء ساخطينَ على العمال لما يصيبهم من الأذى على أيديهم، فكانت تلك القبائل ترحّب بهؤلاء اللاجئين؛ لأنَّهم وإياهم على هوًى واحدٍ، ولهذا، كَثُر وفودهم إلى المغرب، والتجاؤُهم إلى قبائله ،(الجيلالى،٢،١٥٢/١٩٨٢) ويُشارُ إلى أنّ ضعف الخوارج زادَ في العصر الأموي كان بسبب انقسامهم إلى جماعات متناحرة، كلٌّ منها يكفِّرُ الآخر، وهو أمرٌ كان قد أدَّى إلى تشتيت جهودهم، وأتاح لخصومهم ملاحقتهم، والقضاء على ثورتهم، وازدياد ضعفهم، فأحال ذلك دونَ مواصلة نشاطهم السّياسيّ والدّعويّ بصورته العلنية، فكان عليهم أن يُغيّروا من أساليب كفاحهم؛ فنبذوا طريق الثورة السافرة في قلب العالم الإسلاميّ، واتّباع أسلوب الدَّعوة المستورة، وتنظيم العمل السِّريّ، ونقل ميدان نشاطهم إلى الأطراف بعيداً عن قبضة الخلافة (اسماعيل,1973 ١٨), فظهر الخوارج أولاً حول طنجة البعيدة عن القيروان، في حالة غيبة الجيش بصقلية، تحت رئاسة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع, وأخذت تنتشر أفكارهم في القبائل إلى أنْ بلغت طرابلس، وكانت قبيلتا زناتة وهوارة أكثرَ القبائل تقبُّلاً لمبادئ الخوارج، ودفاعًا عنها (الميلي ١٩٦٣ ,141/٢) كما انضمَّ إليهم السَّاخطون، الذين سُلبِتْ أموالُهم؛ بسبب نزاعِهم معَ السُّلطة القائمة بالواقع، ونضالِهم ضدَّ الثَّراء الفاحش، الذي نَعِمَ به الأمويُّون، ويُشار في هذا السّياق إلى أنّه قد انضمَّ إليهم عددٌ كبيرٌ منَ المسلمين؛ لزهدهم وتشدُّدهم في الدين، وكذلك، أبناءُ الطبقة الدُّنيا في المجتمع عملاً بآرائهم في المساواة (بل, ١٤١,١٩٩٠) ,وكانت قد وجدت مبادئُهم تربةً خَصبةً في بعض أطراف الجزيرة العربية، وعُمان، وانتشرت في بلاد فارس، وزنجبار، وبلاد المغرب (أبو زكريا,١٤,١٩٨٢) ويُلحظُ أنّ المؤرخين كانوا قد أرجعوا سبب ظهور فرقة الخوارج الإباضية ونجاحها في بلاد المغرب، إلى نشاطِ الدُّعاة المشارقة، الذين ذهبوا إلى المغرب في القرن الأول الهجري " السابع الميلاديّ "، وأخذوا ينشرون مبادئَهم وأفكارهم بين قبائل المغرب السَّاخطة على الدَّولة الأُمويّة.

معتقدات الإباضيّة وأفكارهم:

تنتسب فرقة الإباضيّة إلى عبد الله بن إباض بن تيم اللات بن ثعلبة من بني مرة بن عبيد، من قوم الأحنف بن قيس،[١] آل مقاعس التميمي، من أهل العراق، قَدِمَ ابن إباض على جابر بن زيد، وأخذ العلم عنه، وجابر تابعيٌّ اتّصف بعلمه الغزير، فقد عاصر عددًا منَ الصّحابة وأخذ عنهم، وكانت له آراءٌ ومعتقداتٌ خاصَّةٌ كانَ قد واجه بها الولاة والحكام. (الصلابي,١٣٣،١٩٩٨)

نشير في هذا المقام التاريخيّ إلى أنَّ فرقة الإباضيّة تُعدُّ من أكثر الفرق الساسية والدينية اعتدالاً، وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية فكرًا ومعتقدا، وهم الأقلُّ غلوًّا وتطرُّفا، لذلك، استمرَّ وجودُهم حتى الآن ، وبرز منهم علماء مائزون، وفقهاء متميّزون، وهم موجودون – حالياً- في عُمان ، وبعض واحات الصَّحراء الغربية في المغرب، وفي زنجبار، ونلحظّ أنّها كانت قد اقتبست القوانين المصرية في المواريث، فجعلتها في بعض آرائهم الخاصّة بالميراث،(أبو زهرة, د.ت،٩١) وكانوا أقرب الفرق معتقدًا إلى أهل السنة(النجار,٨١،١٩٨٦)

ويعودُ ذلك القربُ إلى اتِّصاف معتقداتهم باللين، وعدم التّطرُّف في الحكم على المخالفين لهم من أهل السُنة ، فقد حكموا عليهم بالكفر غير الشرك، اي عدم خروجهم من الملة ، وأجازوا الزّواج منهم، وموارثتهم، ولم يستحلّوا أموالهم باستثناء الخيل والسلاح في الحرب، ويردُّون الذَّهب والفضة إلى أصحابها، ويحرّمونَ دماء المسلمين في السِّر، ويستبيحونها في ساحات القتال (الاسفرايني,٥٨،١٩٨٣) بعد إعلان الحُجَّة؛ لأنَّ مخالفيهم من المسلمين بَراءٌ منَ الشِّرك والإيمان، وأنَّهم في مرتبة متوسّطة، ليسوا مؤمنين ولا مشركين لكنهم كفارُ نعمة (البغدادي,٨٢،١٩٨٦) لا كفارَ مُعتقدٍ؛ لأنَّهم لم يكفروا بالله، بل قصَّروا في طاعة الله تعالى (ابو زهرة,د.ت,٩١)، ولأنَّ جمهور الإباضيَّة مُتَّفقونَ على أنَّ الإيمانَ يشمل ثلاثَ مَقامات، حتى يستوي المؤمن إيماناً كاملا، فلا بدّ له من الاعتقادِ بالقلب، والإقرارِ باللّسان، والعملِ بالجَوارح ، وهم يجعلونَ الاعتقادَ بالقلب المقام الأول، الذي تنطوي عليه القلوب اعتقاداً بالتوحيد، والإقرارَ باللسان أمرًا مطلوبًا وأساسيًّا في الإيمان، تجنُّباً من الوقوع مع الذين ذمهم الله تعالى في قوله: "منَ الَّذينَ قالوا آمنا بأفواهِهِم، ولم تُؤمنْ قلوبُهم (المائدة,١٤) فالإيمان عند هؤلاء لم يتجاوز حدَّ اللسان، ولم يَخلصْ في القلب, وأمَّا العملُ بالجوارح – عندهم- فهو الدليل على وصدق الاعتقاد، وصدقُ اللسان إذا تحقق الإيمان – عندهم- لا يكون إلا بالأفعال. (طعيمه, ١٩٨٦, ١١١-١١٢) لذلك، أجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم من الإباضيّة (الأشعري, ١٩٩٠, ١/١٨٥)، وقالوا: إنَّ دارَ مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد،

إلا معسكر السلطان فإنّه دار كفر (الأشعري, ١٩٩٠, ١/١٨٥)، خلافَ ما اعتقده الأزارقة، الذين أعدّوا دارَ مخالفيهم دارَ حربٍ، ومن لا يهاجر إلى ديارهم من موافقيهم أعدّوه مشركاً، وإنْ كان موافقاً لهم في الاعتقاد (الاسفرايني, ١٩٨٣, ٥٨) وأجمع الإباضيّة على أنَّ مَنْ ارتكب كبيرةً من الكبائر كَفَرَ كُفْرَ نِعمة، لا كفرَ مِلَّة، ولم يبيحوا قتل الأطفال، وجوَّزوا تعذيبَهم على سبيل الانتقام، وأجازوا أنْ يدخلوا الجنة بفضل الله تعالى (الشهرستاني د.ت،١/١٣٤).

والجديرُ بيانُه، أنَّ الإباضيّة أيّدتِ الثورة على الخليفةِ عثمان- رضي الله عنه- وعّدتها مشروعةً، ورأت أنَّ قتلَه واجب، و أنَّ هذا العملَ يُعدُّ من أفضلِ أعمال المسلمين، وأنَّ مقتلَه مساوٍ لانتصار المسلمين في بدر الكبرى، وتُشير المصادرُ الإباضية إلى أنَّ عليًّا – كرّم الله وجهه- وعدداً من المهاجرين والأنصار – الذين وجدوا في المدينة – قد اشتركوا في الثورة على الخليفةِ عثمان – رضي الله عنه- ويرى الإباضيّة أنفسهم أتباعًا وأحفادًا للذين ثاروا على الخليفةِ عثمان – رضي الله عنه- التي تَصفهم المصادر الإباضية بجماعة المسلمين، وهو الاسم الذي أطلقه الإباضيَّة على أنفسهم، وأمَّا بقية المسلمين فيسمونهم بالمُوحِّدين (خليفات,١٩٧٨،٥٨)كما أنّ بعضهم يتبرؤون من علي بن أبي طالب – كرَّم الله وجهه- لقبولِه التحكيم، إلا أنَّ ثمَّةَ فريقًا منهم اعتدلوا في موقفهم تجاه علي – كرّم الله وجهه- (الصلابي،١٩٩٨،١٤٦)؛ لإعتقادهم بأنَّه قدْ نَدِمَ على محاربته أهل النهروان، واعترف أنَّهم ليسوا مشركين، ولا منافقين، بل كانوا من خيار المسلمين في الدين والرأي (خليفات،١٩٧٨،٦٢) وكان علي – كرّم الله وجهه- قد نهى عن قتال الخوارج بعد معركة النَّهروان، وكان يقول لأصحابه: " ذَروهم ما تركوكم" (ابن عساكر, د.ت,٧/٢٠٧) ، كمَا أنّه كانَ قد ميَّز بين الخوارج وبني أميَّة، وعدَّ الخوارجَ أفضلَ من بني أمية، أيْ، أنَّ مَن طلب الحقَّ فأخطأَهُ ليس كَمَنْ طلب الباطل فأدركه، كما أنَّ بعض الخوارج كانوا يَشكُّون في قتال عليّ- كرّم الله وجهه- فيما إذا كان ذلك جائزًا أم لا ؟ لكنَّهم تجرَّدوا من هذا الشّكّ بعد تولّي معاوية- رضي الله عنه- الخلافة، وبدا ذلك واضحًا في قولهم: " جاء ممّالا[٢] يُشكّ فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه" (ابن كثير, ٨،١٩٧٤/٢٢)، كما كان الخوارجُ كارهين لتنازل الحسن بن علي لمعاوية- رضي الله عنهما- وطعنوه في أصل فخذه (ابن الجوزي,د.ت, ٩٣)، وعندما طلب معاوية من الحسن بن علي – رضي الله عنهما- وهو متوجّهٌ إلى المدينة ، محاربةَ الخوارجِ، أجابه قائلا: " والله، لقد كففت عنك لحقن دماء المسلمين، ولا أحسب ذلك يسعني، أفأقاتل عنك قوماً أنت – والله – أولى بالقتال منهم" (المبرد,١٩٩٩،٢/٦٢٢)

ولذلك، آمنت فرقة الإباضـــيّة بالقعود عن الثورة، حتى أنكر أقرانهم من المتطرفين قعودهم فلقّبوهم بالقَعدة، احتقاراً لهم، وذمّا لصـــنيعهم؛ لقعودهم عن القتال، ومحاربةِ الولاة الظَّالمين، وسمّاهم أهلُ السُّنة في البصرة بالحرورية[٣] تجنُّبًا لِما يؤذيهم منَ الألقاب، ممَّا يدلُّ على رضـا أهل البصـرة عن بعض تصـرُّفاتهم، التي لا تؤذي الآخرين (خليفات،١٩٧٨،٦٧)، ولعله من المفيد في هذا السّـــياق القول: بأنَّ عبد الله بن إباض كان قد اتّخذ موقفاً مغايراً عن موقف الخوارج المُتطرّفين تجاهَ أهل التوحيد؛ فقد تميّز عنهم بالاعتدال (أبو زكريا،١٩٨٢،٨)، والتَّستُّر على معتقدات قادتهم، الذين يَنصـحون أتباعهم بعدم إعلان مبادئهم، ولا سيما النّساء؛ خشـيةَ البطش، والتنكيلِ بهنَّ، فأجاز بعضـــهم مبدأ التَّقيَّة، وكان منهم أبو بلال مرداس الذي أشفق على المرأة الخارجيّة المشهورة البلجاء من بطش ابن زياد في قوله[٤]: " إنَّ اللهَ قد وسَّعَ على المؤمنين في التَّقيَّة، فاستتري، فإنَّ هذا المُسْـرِفَ على نفسـه الجبَّارَ[٥] العنيدَ، قد ذكرَكِ" (الدرجيني,د.ت،٢/٢١٦)

اعتقدت فرقة الإباضـية يقينًا بوجوب خليفة للمسلمين (الصـلابي،١٩٩٨،١٧٩) وأجازوا الخروج على الحاكم الجائر، فلا طاعة لحاكم جائر، ولا ولاية لمَن لا يحكمُ بالعدل، ولا يطبق أحكام الإســـلام تطبيقًا كاملا (الصـــلابي،١٩٩٨،١٤١)، فإمَّا أنْ يعتدلَ وإمّا أن يعتزل، ولو أدّى ذلـك إلى قتلـه، ولكنَّهم وضـــعوا شـــروطًـا ثلاثـةً توجـب إظهـار الإمـام وهي :(النجار,١٩٨٦،٨٩)

الأول: قوة اليقين بالمعتقد عند دعاة الإباضـــيّة، الامر الذي مكنهم من التفوق في نشـــر دعوتهم.(النجار,١٩٨٦،٨٩).

الثـــاني: أن يكون أهـل الـدعوة أربعين رجلاً أحرارًا بـالغين أصـــحّـاء، لا إعـاقـة فيهم.(النجار,١٩٨٦،٨٩)

الثالث: أن يوجد بينهم سـتة رجال فصـاعدًا من أهل العلم بأصـول الدين والفقه، من ذوي وَرَعٍ وصلاحٍ في الدين، فإذا اجتمعت- للإباضيّة – هذه الشروط الثلاثة يُصبحُ أمر إعلانِ الإمامة واجبًا، فيعقدونها لأفضلهم، أو مَن يستسحقّها منهم، وقد أقر فقهاء الإباضية وجود إمامين في آن واحد نظراً للاحوال. (النجار,١٩٨٦،٨٩)

موقف الإباضية من الفرق الأُخرى:

يُلحظُ ثمّة توافق بين الإباضـــية وفرقة المعتزلة في كثير من المعتقدات؛ كقولهم بخلق القرآن، واســتحالة رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة، و تأويلهم بعض كلماته أو مســائل الحياة الآخرة كالصِّراط والمِيزان، واستواء العرش، تأويلاً مجازيّاً، ولكنّهم يخالفونَهم في قولهم: إن مرتكب الكبيرة هو في منزلة بين المنزلتين (جفال،٥٠،١٩٩٠)، أي، بين الإيمان والكفر، فهما ضـــدان لا يلتقيان، لذلك، لا يوجد عندهم منزلة بين المنزلتين، و يؤولون الكثير من حقائق يوم القيامة، فالصـــراط المســتقيم ليســت طريقاً حســياً فوق جهنم، و إنما هي طريق الإسلام، ودين الله الذي ارتضاه لعباده، وأخذ هذه الصفة لصعوبة التمسك بهذا الدين، وعدم الانحراف عنه (معمر،٢٨،٢٠٠٠)، ويرون أن الميزان يوم القيامة هو ثبات الســعادة لأناس، والشقاء لآخرين. (السالمي،٢،١٩٨٩/١٢٦)

والإباضـــية في هذه القضـــية قد دخلوا إليها عقلاً متأثرين بمنهج المعتزلة، وجمهور الخوارج، وقالوا:" إنَّ رؤية الباري تُعدّ من الأشـــياء التي لا يتصـــوَّر العقل صـــحَّة وجودِها.(طعيمة،١٠٤،١٩٨٦)

ومن هنا، نستنتج أنَّ معتقدات الإباضية كانت أكثر تسامُحاً مع مخالفيهم من الفرق القدامى، و أنَّ هذا التســاهُلَ بدأ يزداد شـيئاً فشـيئاً، وقد يكون سـببه ضـعفَهم لكثرة حروبهم، فأرادوا أن يتقرَّبوا من مخالفيهم، حتى لا تكون بينهم حروبٌ، أو من الممكن، أنَّ فكرهم تطوَّرَ، واتَّســعت مداركُهم، وعرفوا ما لم يكن يعرفه ســلفُهم، الذين كانوا من عرب البادية، وكان فيهم ســـذاجة، وعدم عمق في التفكير، وقد يكون قد اجتمع لديهم السَّـــببان في الوقت عينه؛ فالحروبُ قد أضعفت حماستهم، وأصبحت نظرتهم فاحصة شاخصة، وعميقة في أمور الدين أكثر ممَّن ســبقهم من الخوارج (الغرابي،٢٨١،١٩٥٨-٢٨٢)، لكن الإباضـــية عدّوا أنفســـهم ظُلموا ممَّن يعدّهم فرقة من الخوارج، و يقولون: إنَّما هي دعاية اســـتغلتها الدّولة الأمويّة استغلالا سياسيّا، والشّيعة استغلالاً دينيا مذهبيّا؛ لتشويه سمعتهم، واتّهامهم بالعنف، و شذوذ المُعاملة (معمر،٢٢،٢٠٠٠) ومع قلة الدلائل والرَّوابط بين الخوارج، والإباضـــية، فإننا لا نستطيع إلا مسايرة الاتجاه الفكري العام لدى سائر كُتَّاب الفرق الإسلاميّة، فنُدرجَ الإباضية في قائمة فرق الخوارج درجًا تصنيفيًّا لا غير، وفقًا للمعطيات التاريخيّة الآتية: إنكار التّحكيم في صـفين، وعدم اسـتئثار قريش بالإمامة، وجواز الخروج على الحاكم الظالم، إلى غير ذلك من الأفكار المشـــتركة بين معظم فرق الخوارج (النجار،٨٣،١٩٨٦)، كما أن معرفتنا بنشـــأة الإباضـية يدلنا على أنَّها خرجت من صـلب فرقة الخوارج، فقد اشـترك عبد الله بن إباض مع المحكمة الأولى من زعماء الخوارج الذين لبوا نداء عبد الله بن الزبير عندما قال:

" مَن ينصــرُ اللهَ مَن ينصــرُ الكعبة" (أبو عبيدة،١٩٧٥،١/١١٥) فخرجوا يدافعون عن مكةَ ضــدَّ جيش الشَّــام المُحاصــر لها (جلي،١٩٨٦،٥٣)ولعل – ما ذُكرَ آنفًا– يُعَدُّ من الأســـباب التي جَعلتْ كثيراً منَ المؤرِّخين يُضـــمُّونَ الإباضـــيَّة إلى فرق الخوارج من أزارقة وصـــفرية ونجدات وغيرهم، وعلى الرّغم من الخلافات التي حصـــلت بين عبد الله بن إباض ونافع بن الأزرق، وتكفير كليهما الآخر، والبراءة منه (المبرد،١٩٩٩،٦٥١–٦٥٢) فلا شكَّ أنَّ ثمَّةَ فروقاً عديدةً في كثير من مبادئ الخوارج ولا ســـيّما الموصـــوفة منها بالغلو والمغالاة، ومبادئ الإباضـــية مع وجودِ بعض القواســـم المشـــتركة بينهما، والحقُّ يقالُ في هذا المقام التحليليّ، أنَّه لا أحدٌ ينكرُ دورَ الإباضــيّة في خدمة العِلم الإســلاميّ، فقد اشــتغلوا بالتَّدوينِ، فكانوا مِن أوائل مَن دوَّن الحديث، فإمامُهم جابر بن زيد، من أوائل المهتمين بعِلم الحديث، وأقوال الصحابة، فقد أَخذَ عن عبد الله بن عباس، وعنِ الحكم بن عمرو، وروى عنه عمرو بن دينار (النجار،١٩٨٦،٨٢)

تنظيم الدَّعوة الإباضيَّة:

يعود الفضلَ في تنظيم أسلوب الدَّعوة الإباضيَّة يرجع إلى جابر بن زيد ، الّذي اتَّصف بعلمه الغزير، وحَظِيَ بمنزلةٍ عاليةٍ عند الإباضـــيّة، حتى عدَّهُ بعضُـــهم أوَّلَ الأئمة (اسماعيل،١٩٧٣،٤٣)، وقد اتَّسع نشاطُ الحركة الإباضيّة في البصرة، عندما كان جابر بن زيد زعيماً لها، وانضـــمَّ إليها عددٌ كبيرٌ منَ المؤيّدين في البصـــرة وخارجها، ويرجعُ ذلك إلى سياسة جابر الذكيّة ولاستعماله التَّقيَّةَ الدَّينيّة، وحُسْن اختياره للدَّعاة الّذين كانَ يرسلُهم إلى الأقاليم الإســـلاميّة، وقد نجح جابر بربط هدف الحركة بأهداف كثير منَ النَّاس، الذين كانوا يعارضـون الحكم الأمويّ، وهذا مكنَّه من اجتذاب عناصـر مختلفة من قبائل وأجناس متعددة، فأصـــبحت الدَّعوة الإباضـــية حركة معارضـــة شـــاملة لنظام الحكم على الرّغم من ســـريَّتها (خليفات،١٩٨٢،١٥)

تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ أبا عبيدةَ مسلم بن أبي كريمة التميمي كان قد تسلّم زمام الدّعوةِ بعد وفاة جابر سنة ٩٣هـــ٧١١م [٦] ، وهو أحد أعلام تلاميذه، وأشدهم تفانيا في الدِّفاع عن الدَّعوة الإباضيَّة (أبو زكريا،١٩٨٢،١٢) وقد قيل عنه: إنَّه ظلّ يتلقَّى العِلم أربعينَ عاما.

وبعدها أخذ يعلمه ممَّا أكسبه شهرةً واسعة، وتعمَّق في العلوم على اختلافها تعمُّق العارفين، وقد سُجن في زمن الحّجَّاج، وأُفرج عنه بعد موت الحجاج، وقد ساعده كبار رجالات الإباضيَّة في البصرة من أمثال أبي نوح، وأبي مودود بن حاجب، والربيع بن حبيب، مما رفع من شأن الدعوة الإباضيّة وشدَّ ساعدها (النجار،٨٧،١٩٨٦)

كانَ ابنُ أبي كريمة صاحبَ عقلٍ مُرتَّبٍ ومنظَّمٍ، وعلمٍ غزيرٍ في أصول الفكر الإباضيّ، وقد دبَّر ونظَّم شؤون الإباضيَّة، وجمعَ الأموال لشراءِ السَّلاح والمُعدات، لتظهر، في الوقت المناسب، للإستعانة بها على ظهور الحركة الإباضيّة (محمود اسماعيل،٤٣،١٩٧٣-٤٤)، واستمرَّ ابن أبي كريمة في أداءِ المُهمَّة، التي وكلّ بها حتى أَوجدَ مجتمعاً إباضياً سرَّياً متماسكاً تسوده الإلفة، والمُحبة، والتَّعاون، وطور التَّنظيمات السِّرَّية للحركة، بحيث استحق لقب منظِّم الحركة، وأوجدَ حكومة ثورية سرّيّة في البصرة، كان لها دورٌ كبيرٌ في نجاح الدَّعوة الإباضيَّة، وانتشارها وتحقيق أهدافها (خليفات،١٦،١٩٨٢)

أنشأ أبو عبيدة في البصرة مكاناً للدراسات الإباضيّة كانَ يشرف عليه، ويعلِّم الطلبة، ويدرِّبهم على القيام بنشر الدعوة، ثم يبعث دعاة، كان قد أطلق عليهم مسمّى حمَلَة العِلم، إلى مختلف البلدان، وكان يزوّدهم بمعلوماتٍ تعينهم على أداء مهمة سياسيّة ودعويّة لنشر الدعوة الإباضية في السِّرّ، حتى تصبح الظروف ملائمة لبدء الدعوة العلنيّة، وبعد أنْ يجتمع لديهم أعداد كافية من الأنصار والمؤيدين، ومنْ ثَمَّ، يعلنون حالة الظهور، والعمل الدَّعوي العلنيّ (أبو زكريا،١٣،١٩٨٢).

ونؤشّر هنا إلى أنّ ابن أبي كريمة أرسلَ داعيتَه" سلمةَ بن سعيد"[٧] إلى بلاد المغرب؛ من أَجْلِ نشر الدَّعوة (النجار،٨٧،١٩٨٦)، وأبدى سلمة حماساً شديداً لما كان يدعو إليه، ويروى أنَّه كان يقول:" وددت أن لو ظهر هذا الأمر يوماً واحداً من أول النهار إلى آخره، فلا آسف على الحياة بعده"(الدرجيني،د.ت،١/١١-١٢).

وكان سلمة بن سعيد قد أقام في جبل نفوسة في منطقة طرابلس، وأخذ يدعو لفكره بين قبائل هوارة البربرية، واستطاع أن يقنع بعض الأشخاص ممَّن اعتنقوا مبادئ الأباضية، بالذَّهاب إلى المشرق، ليأخذوا العِلم، ويتفقهوا في أصول الدعوة الإباضيّة على يد زعيم الحركة في البصرة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وكان أشهر هؤلاء الأشخاص الذين لبُّوا رغبة داعيتهم سلمة في ذلك،" أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر الجناواني" (خليفات ١٩٨٢ ،١٧) الذي تتلَّمذ على يد أبي عبيدة في البصرة، وحلَّ مَحِلَّ سلمة بن سعيد بعد

وفاته، وفي أيّام أبي عبد الله اكتمل انتشـــار الفكر بين بربر نفوســـة في بدايات القرن الثاني للهجرة/الســابع الميلادي ، وأصــبح جبل نفوســة دار هجرة الحركة الإباضــية في بلاد المغرب (محمود اسماعيل،١٩٧٣،٤٤) وممَّا زاد من انتشـار المبدأ الإباضـيّ – بالإضـافة إلى نشـاط الدُّعاة– أنَّ فكرهم كان مناســـباً لثقافة البربر، وعقليتهم، ممَّا جعل الكثير من أبناء قبائلهم يؤمنون بالفكر الأباضـــي (بل،١٩٩٠،١٤٧)، كما أنَّ هناك إشـاراتٍ تدلُّ على وجود عناصـر في القيروان من أهل الدعوة، كانوا قد مهدوا إلى انتشـار الفكر الأباضـي انتشـارًا سـريعاً. (ابو زكريا،١٩٨٢،٥٥)

دور حمَلة العِلم في نشر معتقدات الإباضيّة في المغرب:

حقَّقَ دعاة الإباضـــيّة نجاحاً كبيراً في نشـــر الفكر الإباضـــيّ في المغرب الأدنى والأوســـط، وكان هذا النجاح به حاجة ماسّـــة إلى تدعيمه بمزيد من العِلم والمعرفة بمعتقدات الإباضيّة الفقهيّة، لذلك، رأى سلمة بن سعيد وابن مغيطر أنّه ينبغي لهم إرسال عددٍ من الدّعاة حملة العلم من مختلف القبائل والأجناس، إلى البصـرة مركز الدعوة الإباضـية؛ ليعودوا دعاة لأقوامهم، ومفسِّرين لمعتقدات الأباضيّة، بعد تلقيهم العلم على أيدي شيوخ الفكر الأباضي في المشرق (النجار،١٩٨٦،٨٥) الذي بعدّ المركز الرئيس للدعوة الإباضية.

ولذلك، فقد اتّجهت سـنةَ ١٠٣هجرية/٧٢١م نحو البصـرة أوَّل بعثةٍ علميَّةٍ منظمَّةٍ، اِختيرَ رجالُها من قبائل ومناطق مختلفة؛ لكي يسـهُلَ عليهمُ الدَّعوة بعد عودتهم إلى مناطقهم، وبين أقوامهم, وتكونت من أربعة أشـخاص (خليفات،١٩٨٢،١٧)، وهم: أبو درار إسماعيل بن درار الغدامسـي من غدامس، جنوب طرابلس، وعبد الرحمن[٨] بن رسـتم من القيروان، وعاصـم السـدراتي من سـدراتة غربي أوراس، وأبو درار القبلي النفزاوي من نفزاوة جنوب تونس، وانضـم إليهم في البصـــرة أبو الخطاب عبد الأعلى بن الســـمح المعافري، وهو عربيٌّ من اليمن، وقد سُمي هؤلاء في المصـادر الإباضـية بحملة العِلم إلى المغرب (الدرجيني،د.ت،١٩/١) ، ومكثوا في البصـرة خمس سـنوات يأخذون فيها العلم، ومبادئ الدعوة في المدرسـة السِّريَّة التي أقامها أبو عبيدة في سراديب تحت الأرض (النجار،١٩٨٦،٨٦)، وإمعانا في التَّخفّي كان يجلس أمام باب السـرداب رجل يعمل القفاف، وعلى فمه سـلسـلة يحركها إذا رأى شـخصـا مقبلا لينبه من بالداخل إلى التزام الصَّـــمت، ريثما يمرُّ من يَشـــتبَهُ في أمره (أبو زكريا، ١٩٨٢،٥٥)، وغالبا،

ما كانت هذه المجالس تُقام في بيوت النِّسوة والعجائز منعاً للشُبهة، أو ربما كانوا يتنكرون في ملابس النساء عند ذهابهم إلى مجالس العِلم.(أبو زكريا، ١٩٨٢،٥٦)

يُذكرُ أنَّ المصادر الأباضيّة كانت قد أَطلقت على هذه المجالس اسم الحلقة، أمَّا العلومُ التي كان الأتباع يتلقوْنها فأطلقوا عليها الأسماء المُعَرِفَة بالأصول، والفروع، والسِّيَر، والتَّوحيد، والشريعة، وآراء الفرق الأخرى، بالإضافة إلى علوم اللغة، والفلك، والرياضيات، وتبصيرهم بفنون الحكم، وأساليب السياسة، وإعدادهم لتقُّلدِ المَناصب، والقيام بأعبائها، في مرحلة الظُّهور، ومن ثمَّ، المُجاهرةُ بالعمل، عندما تتوفَّر لهم العُدَّة والعَدَد منَ الرجال (النجار،١٩٨٦،٨٦).

ونظراً لأهمية الدّور الذي يلعبه حملة العِلم في أقاليمهم، فإنَّ عملية التكوين استمرت مدّة طويلة، كما يبدو، فإنَّ أبا عبيدةَ كان يوزّع على تلاميذه المسؤوليات الملقاة على عاتق كلِّ واحدٍ منهم، أو بعبارة أُخرى أدقُّ، إنَّه كان يعدُّهم للقيام بالثورة خير قيام (البكاي،٢٠٠١،٢٣٤).

رأى أبو عبيدة أنَّ تلاميذَهُ عرفوا مبادئ الدَّعوة الإباضيّة تمامَ معرفة، وأصبح لديهم القدرة على نقل أفكارهم إلى مواطنيهم، فأمرهم بالعودة إلى ديارهم؛ لينشروا معتقدات الإباضيّة في بلادهم، وزوّدهم بنصائحَ وإرشاداتٍ، وطلب منهم الرجوع إليه فيما يستجدُّ من أمورٍ يَصعب عليهم فهمها،أو فيما يطرأ من الأحوال الطارئة والأمور المستحدثة.

و قد عمل هؤلاء النَّفر بجدٍّ واجتهادٍ في نشر أفكارهم؛ لتحقيق أهدافهم، مستغلين معرفتهم بأبناء مناطقهم، وخبرتهم في عاداتهم وتقاليدهم، والأساليب التي تؤثّر فيهم لإقناعهم، و كسبهم إلى جانب الحركة الإباضية؛ ومن أجل ذلك، قاموا بتأسيس المدارس السِّريَّة على غرار مدرسة البصرة، وتخرّج على أيديهم عددٌ من الدُّعاة الإباضية المغاربة، وتسميهم المصادر " تلاميذ حملة العلم" (خليفات،١٩٨٢،١٨) وقد راعى هؤلاء الدُّعاة في اختيار الأعوان وجود اعتبارات عدّة ، منها: الكفاءة ، والالتزام ، والمكانة داخل القبيلة، والوزن في المنطقة، وبالتوازي مع هذه العملية يواصل الدعاة والعناصر المحلية المنظمة نشر الفكر الأباضي في الأقاليم (البكاي،٢٠٠١،٢٣٤).

وبذلك، أصبحت بلاد المغرب معقلاً لنشاط الخوارج، ولا سيما بعد انتشار الفكر الصفري بين بربر المغرب الأقصى، وبعض نواحي المغرب الأوسط، والأباضي في المغرب الأدنى والأوسط، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ المغرب من الثورات وظهور الدويلات (اسماعيل،١٩٧٣،٨٦) وتشير المصادر الأباضية إلى أنَّ حملة العلم سألوا أبا عبيدة – عندما أرادوا العودة إلى بلادهم– عن تعيين إمام لهم، إذا أنسوا في أنفسهم القوة والعدة، فقال لهم أبو عبيدة:" توجّهوا إلى بلادكم، فإنَّ كان أهل دعوتكم ما تجب به عليكم التولية في العدد والعدة من الرجال، فولّوا على أنفسكم رجلاً منكم، فإنْ أبى، فاقتلوه، فأشار إلى أبي الخطاب[٩]"(الدرجيني،د.ت،١/٢١) كما عيّن إسماعيل بن درار الغدامسي قاضيا (أبو زكريا،١٩٨٢،٥٦).

إعلان إمامة الظهور ومبايعة أبي الخطاب:

نشيرُ في هذا السياق إلى أنَّه من أجل إعلان إمامة الظهور فقد أخذ حملةُ العِلم بالاتصال بجماعة الإباضيّة في منطقة طرابلس، وجبل نفوسة، وأخذوا يهيئون أتباعهم من القبائل البربرية، التي اعتنقت الفكر الأباضيَّ استعداداً للثورة، وإعلانًا لإمامة الظهور (خليفات،١٩٧٨،١٤٧)، وبعد مشاورات طويلة وسريَّة، استقرَّ الرأيُّ على أنَّه بالإمكان إعلان الإمامة، وأنَّ لديهم القوة الكافية لذلك، وأخذ أعيان الأباضيّة ورؤساء العشائر الموالية لهم بالخروج إلى مكانٍ قريبٍ من طرابلس، يُدعى صيّادا؛ للتشاور في أفضل الطرق، لتحقيق ذلك ، وكانوا يدعون أنَّهم يجتمعون لقسمة أرض مشتركة اختلف عليها، وحتى لا ينكشف أمرهم، وكان زعماؤهم يذهبون لزيارة الوالي، والسَّمر عنده ليلا. وبعد أنْ اتَّفقوا على عقد الإمامة[١٠] لأبي الخطاب، وأجمعوا عليه، تواعدوا على يومٍ معلومٍ يجتمعون فيه في صيّاد؛ لتتمَّ البيعة، وفي اليوم المحدّد، تمّت البيعة لأبي الخطاب، على أنْ يحكم بينهم كتاب الله، وسنّة نبيّه – صلَّى الله عليه وسلّم– (أبو زكريا،١٩٨٢،٥٧–٥٨) ثمَّ اتَّفقوا على خطّة[١١] للاستيلاء على طرابلس، وقاموا بتنفيذها، فلم يستطعِ الوالي العباسيّ الدِّفاعَ عن المدينة فاضطُرَّ، للاستسلام، وخيّروه بين الخروج أو التنازل عن الولاية، والبقاء في المدينة، لكنه اختار الخروج، واستولى أبو الخطاب على طرابلس سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م، وأحسن السيرة وأظهر العدل، ولم يعرض السكان لمكروه (أبو زكريا،١٩٨٢،٥٩).

يجدُرُ البيانُ في هذا المقام أنَّ بعد نجاح الإباضـــية على يد حملة العلم في المغرب، أرسـلوا إلى إمامهم أبي عبيدة في البصـرة يخبرونه بما حققوه من إنجازات، ويطلبون منه إبداء رأيه في بعض المسـائل، فَسـرَ الإمام، بذلك، و أرسـل إليهم كتاباً هنَّأهم فيه على انتصـاراتهم، وأجاب فيه عن بعض استفساراتهم، وقال في الكتاب: " أتاني كتابكم تذكرون فيه ما مَنّ الله به عليكم من جمع كلمتكم، وائتلاف أمركم في كثيرة من بحضرتكم من أهل الخلاف لكم، ولعمري ما كثرتهم، وإن كثروا بأكثر ممن كان قبلهم على من كان قبلكم من سلفكم فاقتدوا بهم تهون عليكم ... نسأل الله العون والتوفيق في جميع أموركم، وأن يكفنا وإياكم بأسهم، وأن يجعل لنا ولكم ولجميع المسـلمين الدائرة عليهم، ويشـفي صـدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، فلعمري لقد سـرَّني ما انتهيتم إليه من أمركم، وإن كان ذلك لم يخف عنا، غير أنا لم نظن الذي كتبتم به إلي والله سـيتمم لكم الخير كلّه – بعونه وتوفيقه– أتانا كتابكم بمسـائل فمنها ما رأيت أن أجيبكم فيها، ومنها ما رأيت ألا نجيبكم من غير هوان ولا تقصـير، إلا الذي رأيته أصلح لجماعتكم، وأقوم لشأنكم، وأرفق لضعيفكم، وأعطف في الذي أجيبكم فيه، فما كان من الصـواب فمن الله، وما كان من الخطأ في رواية أو خبر أو غير ذلك فمن نفسـي" (خليفات،١٤٥،١٩٧٨).

يتبيَّن لنا أنَّ إباضـية المغرب ظلّوا على اتّصـال مسـتمرٍ مع زعماء الإباضـيّة في المشرق، وكانوا تابعين لهم، ويستشيرونهم في جميع الأمور، أي، أنَّ الزَّعامة الرُّوحيَّة للحركة الإباضـيَّة كانتْ بالمُشرق، كما أنَّهم كانوا بحاجة ماسّـة دائمة إلى تعاليم أبي عبيدة المقيم في البصـرة؛ ليسترشـدوا بها، أو للإجابة عن أسـئلتهم الفقهية التي تحتاج إلى معرفةٍ علميَّةٍ عميقةٍ في أُصول الإباضيَّة، ودرايةٍ تامّةٍ في التَّطورات المَيدانيّة لعناصر الحركة في بلاد المغرب.

والجديرُ ذكرُه أنّه بعد أنْ أعلنَ قادة الحركة الإباضيَّة إمامة الظّهور في المغرب سنة ١٤٠هـ/٧٥٧مـ تمكَّنوا من دخول طرابلس بزعامة " أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري "(أبو زكريا،٥٩،١٩٨٢) الّذي قرَّر أنْ يوسعَ حدودَ ولايته على حساب مخالفيه، فاستولى على جزيرة جربه، وجبل دمر، ثمَّ على قابس في العام نفسه، ودانت له معظم أنحاء المغرب الأدنى، وأخذ يتطلع إلى الاستيلاء على القيروان عاصمة المغرب (خليفات،١٥٠،١٩٧٨).

ترى معظمُ المصادر أنَّ خروجَ أبي الخطاب إلى القيروان كان استجابة لنداءات أهل القيروان واستغاثتهم[١٢] بأبي الخطاب، لما قام به اِلصَفريَّة بزعامة قبيلة ورفجومة من أعمال مشينةٍ، واعتداءٍ على النِّساء، وقتل الرِّجال، وانتهاك الحرمات.(الرقيق،د.ت،١٤١-١٤٢)

وفي الوقتِ نفسِه، كان أبو الخطاب يتوقُ إلى ضمّ القيروانِ إلى ملكِه، وقد يكونُ من الممكن أنَّه اتَّخذ من ذلك ذريعة؛ لحشد أعدادٍ كبيرة من المسلمين المقاتلين، لقتال الِّلصَفريَّة وإخراجِهم من القيروان، مُبْرِزًا نفسه بوصفِهِ إمامًا زاهدًا تقيًّا مدافعًا عن دماء المُسلمين وأعراضهم، ومخلِّصًا لهم منَ الظُّلم الذي سببّته الفرقة الصِّفرية، وفي الوقت نفسه، كان أبو الخطّاب يُدرك ما للقيروان من أهمِّيَّة (خليفات،١٩٧٨،١٥٠) . لذلك، عمِلَ كلَّ ما وَسِعَه الجهدُ لإنجاح حمْلَتِه العسكريَّة، فقد نادى النّاس إلى الصلاة الجامعة، وخطب فيهم مرَّغِبًا إيّاهم في الجهاد والصَّبر والجَلَد والقتال، وأمرهم بالاستعداد للحرب، وخرج أبو الخطاب من المسجد مشهرًا سيفه وكاسرًا غمدَه لمَّا وصل الباب، مما يدلّ على تصميمه على القتال والحرب، وقال: " لا حكم إلا الله" (اليعقوبي،٢،١٩٩٩/١٣٣) ليُرغب جماعته في القتال، فاجتمع إليه أصحابه في جموع كثيرة، وهم ينادوُنّ: " لا حكمَ إلا الله، ولا إمام إلا أبو الخطاب"(أبو زكريا،٦٠،١٩٨٢)، وعلى الرَّغم، ممَّا أبداه أتباعه من حماسٍ واندفاع، أراد أبو الخطَّاب أنْ يُخْرِجَ من صفوف جيشه العناصرَ المُتردِّدةَ في القتال، ويُبقي في صحبته المخلصينَ للحركة؛ لكي لا يؤثِّرَ هؤلاء في معنويات الجيش سلبًا، فأمر مناديه أنْ يُنادي في النَّاس ثلاثة أيَّام: " مَن له أبوان كبيران، أو أحدهما فليرجع، ومَن له عروس قريب عهدها، فليرجع، ومن أراد الرجوع منكم فليرجع بالليل" (الدرجيني،د.ت،١/٢٨) فرجع أناس، وبقي معه ستة آلاف مقاتل من المخلصين (خليفات،٦١،١٩٧٨) والمتحمسين لقتال قبيلة ورفجومة الصفرية الذين تحصنَّوا في مدينة القيروان.

سارَ أبو الخطاب إلى القيروان سنة ١٤١هـ/ ٧٦١مـ لتخليصها من أيدي الصّفرية (الناصري،١،١٩٥٤/١٢٣)، وفي أثناء سيره إلى القيروان حاصر مدينة قابس؛ حتى أسلموا له بالطاعة، فوضع عليها نائباً عنه، وتوجَّه إلى القيروان، فحاصرها، لكنها امتنعت عليه، فلجأ إلى الحيلة، فأمر أصحابه أنْ يَخرجوا في الليل إلى وادٍ وراءَ فحص رقاد، وكَمَنَ فيه، فأخذ أهل المدينة في طلب أبي الخطاب، فلمَّا لحقوا بهم وجدوهم مُعسكرين، فهاجمهم أبو الخطاب (خليفات،١٥١،١٩٧٨) وأصحابه فهزموهم، وتبعوهم بالسيف يقتلونهم؛ حتى دخلوا القيروان، فاستسلمت المدينة لأبي الخطاب سنة١٤١هـ/ ٧٦١مـ ،وأمر أصحابه أنْ لا يفسدوا أو يتعرضوا لأهل القيروان (أبو زكريا،٦٣،١٩٨٢) وقد رسمت المصادر الإباضيَّة صوراً مثالية[١٣] لأبي الخطاب في تعامله مع أهل القيروان، والفلول المنهزمة من ورفجومة الصفرية بعد انتهاء القتال. (خليفات،١٥١،١٩٧٨).

من الجدير ملاحظته أنَّ أبا الخطَّابَ نظّمَ شؤونَ القيروان تنظيمًا إداريًّا متميزاً ؛ فعيّنَ عليها عبد الرحمن بن رستم (اسماعيل،١٠٨،١٩٧٣) أحد حملة العلم (ابن عذاري،٧١،١٩٩٨)، ثمَّ رجع أبو الخطّاب إلى طرابلس لمعالجة الأوضاع المُضطربة هناك (ابن خلدون،٤،١٩٩٩/١١٣)، أقلق الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ما حصل في بلاد المغرب فعيّنَ محمد بن الأشعث الخزاعي والياً على مصر، فَقِدَمها يوم الاثنين لخمس خلون من ذي الحجة سنة ١٤١هـ/ ٧٥٨م (الكندي،د.ت،٨٩)، ثم أمره بأنْ يتوجَّه إلى المغرب بعد أنْ جهّز[١٤] إليه الجيوشَ (ابن الأبار،١،١٩٨٥/٣٥٦) فلقِيَهم أبو الخطّاب بِسرت.(ياقوت،٣،١٩٩٥/٢٠٦).

عندما وصل الخبر إلى عبد الرحمن بن رستم (الناصري،١،١٩٥٤/٣٥٦)، خرج بجيشٍ من القيروان لِنجدةِ إمامِه، لكنَّه توقَّف عند قابس عندما وصلته أنباءُ قتلِ أبي الخطّاب، وهزيمةِ جيشه، فرجع إلى القيروان لثورة أهل قابس عليه (اسماعيل،١٠٩،١٩٧٣)، وتمكَّن ابن الأشعث من القضاء على الولايات الإباضية بطرابلس، ثم زحف نحو القيروان، فوجد ابن رستم من الأفضل له ولأتباعه النجاة إلى المغرب الأوسط؛ لكي يتمكّنَ – بفضلِ أنصاره – من إعادة إنشاء دولة إباضية على نسق دولة أبي الخطاب، فخرج متخفياً نحو المغرب، ولم يكن بصحبته سوى ابنه عبد الوهاب ومملوكه، وما خف من مال (سالم،٤٥٣،١٩٩٣).

سار عبد الرحمن بن رستم [١٥] حتى نزل على قبيلة لماية بجبل منيع، يسمى سوفجج، في المغرب الأوسط، فاستقبله أهالي الجبل، بما يليق به من إكرام، وذاع صيته، فوفدت عليه وجوه الإباضية من العلماء والأعيان، وأخذوا في تدبير أمرهم، وتنظيم شؤونهم؛ لرفع شأنهم بإنشاء دولة لهم (الجيلالي،٢،١٩٨٢/١٦٥)، ولمَّا علم ابن الأشعث بتمكن ابن رستم من الفرار إلى المغرب الأوسط، واجتماع قبائل البربر إليه، والتفافهم حوله، جهَّز جيشاً، وسار به إلى هذا الجبل؛ قصْدَ القضاءِ على ابن رستم قبل أنْ يستفحلَ أمرُه (سالم،٤٥٣،١٩٩٣)، وعندما وصل ابن الأشعث نزل بسفح الجبل وخندَقَ[١٦] على عسكره؛ خوفاً من هجوم الإباضية على معسكره، وحاصر الجبل زمناً، فامتنع عليه، وطال الحصار، فاستشار قادة الجيش، فبعضهم، أشار بالمقام حتى يفتح الجبل، وبعضهم الآخر، أشار بتركه والعودة إلى القيروان، لكنَّه أقلع عن الحصار؛ بسبب مناعة الجبل، واختلاف كلمة أصحابه (الميلي،٢،١٩٦٣/٥٨)، وفي رواية أخرى، تعيدُ انسحاب هذا الجيش إلى تفشِّي الأمراض، وموت عدد كبير من جنود ابن الأشعث (الدرجيني،د.ت،١/٣٦) الذي عبَّر عن صعوبة فتح الجبل في قوله: " إنَّ سوفجج لا يدخله إلا

دارعٌ ومدجّجٌ" (الباروني،١٩٨٧،٤٤)، وأقام عبد الرحمن بن رستم هناك، حتى اجتمع عليه عدد كبير من فضلاء الإباضية وكبارها، وأجمع هؤلاء على مبايعته بالإمامة، وتفاوضوا في بناء مدينة تكون مقراً لدولته، يقصده فيها من أراد الالتحاق به، وينزل فيها هو وأتباعه وأنصاره، وتكون عاصمة لدولته، على نحو ما فعله غيره من مؤسّسي الدول في تلك الفترة. (الناصري،١٩٥٤،١/١٣٨)

قيامُ الدَّولةِ الرُّستميّة:

يُعدُّ قيامَ الدولة الرُّستميّة منْ أهمِّ نتائج انتشار المتعقدات الإباضيَّة في بلاد المغرب؛ ومن أجل ذلك، بنى عبد الرحمن بن رستم مدينة تاهرت سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٦م (الجيلالي،١٩٨٢،٢/١٦٥) لتكون عاصمةً لدولته الناشئة، وأقام فيها، فاجتمع إليه علماء الإباضية من جميع أنحاء المغرب، واتَّفق رأيهم على توليته ومبايعته، فبايعوه على الإمامة بكتاب الله، وسنَّة رسوله – صلَّى الله عليه وسلَّم– وآثارِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ المَهدِّيين، فقبل عبد الرحمن ذلك، وأحسن السيرة، وعمل على تجميع الإباضية، وتوحيد كلمتهم (أبو زكريا،١٩٨٢،٨٣) وبذلك، يُعَدُّ ابن رستم المؤسّس الأوَّل للدَّولة الرُّستمية[١٧]، التي اتَّخذت منْ تاهرت عاصمةً لها في المغرب الأوسط (ابن عذاري،١٩٩٨،١/١٩٧)، وكان سكان تاهرت ملتزمين بتعاليم الدِّين الإسلاميّ في حياتهم اليوميَّة، وهناك عقوبات يفرضها الإمام على المخالفين.

كان قد رسّخ ابن رستم دعائم الدولة، ووطَّد أركانها[١٨] وأصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها، بعد أنْ نظَّم مؤسّسوها صفوفَهم، وحلُّوا مشكلاتهم (سالم،١٩٩٣،٤٥٩)، والدولة الرستمية دولة مستقلّة استقلالاً تاماً عن الخلافة العباسية في بغداد. (الميلي،١٩٦٣،٢/٦٠)، وقد انضمت إليها قبائل المغرب الأوسط التي استجابت للدعوة الإباضية، كما انضم إليها كثيرٌ من الخوارج الصّفرية، وجماعة تسمَّى الواصليّة، الذين يعدّهم البكري من الإباضيّة (البكري،د.ت،٧٢) وعلى الرَّغم من أنَّ المعروفَ عنها بأنها من المعتزلة، وذلك، حسب روايات الإباضية، فأبو زكريا يذكرُ أنَّ الواصلية قومٌ من البربر، أكثرهم من قبائل زناتة، ومن الممكن أنَّ الفرقتيْن تحالفتا بعد أنْ أخذ كلٌّ منهم موقفاً وسطاً بالنسبة لمرتكب الكبيرة، وقد يكون هذا السبب في جعلِ معتزلة المغرب من الإباضية، أو أنَّ بعض جماعات الإباضية عُدَّت من المعتزلة (عبدالحميد،١٩٧٩،٢٩٥)، واعترف الجميع بإمامة ابن رستم، وعلى رأسهم أبو حاتم[١٩]

الذي خَلَف أبا الخطاب، وكان متخفياً في طرابلس، فأبو حاتم عُدَّ إمامَ دفاعٍ في نظر أئمة الإباضية، ولم يكن إمامَ ظهورٍ كأبي الخطاب، وبناءً على ذلك، كان يرسل ما يزيد عن حاجته، ممّا جمع من زكاة وأموال، إلى عبد الرحمن بن رستم (الدجيني،د.ت،٣٦-٣٧). والحقيقة أن اجتماع هذه الفرق المتنافرة في دعوة واحدة يمكن أن يفهم منه أنَّ المسألة لم تكن مسألة إصلاح دينيٍّ، يسعى إليه بعضُهم أو الآخرون، بل كانت مسألة سياسية صرفة، هدفها الدفاع المشترك، والوقوف أمامَ ممثلي الخلافة العباسية، واستقلال الدّولة، بمعنى آخر أنَّ الدين كان ستاراً يُخفي أهدافا، أو لإعطاء موقف الانفصال نوعاً من الشرعية أمام عامة المسلمين (عبدالحميد٢٩٥،١٩٧٩-٢٩٦)، وهذا يفسر لنا اضطراب أحوال الدولة الرستمية، بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم، فقد امتلأت الدولة بالفتن السياسية، والانشقاقات المذهبية، والصراع العنصري، مما جعل تاريخ تاهرت كان سلسلة من القلاقل والخلافات الداخلية، والواقع أنَّ هذه الظاهرة كانت أكثر بروزاً في الدَّولة الرُّستمية من أيّ دولةٍ من دول المغرب المعاصرة لها (اسماعيل،١١٤،١٩٧٣-١١٥).

الخاتمة:

فبعد جولة بحثية تحليلية لحركة الإباضية في بلاد المغرب فإنّ الدراسة الحاليّة وصلت إلى النتائج الآتية:

أولاً: يرجعُ الفضلُ في تنظيم الدَّعوة الإباضيَّة إلى جابر بن زيدٍ، ذي العلم الغزير، والذي كان صاحب منزلةٍ عاليةٍ من الاحترام والتَّقدير لدى الإباضيّة، حتى عدّه بعضُهم أوَّلَ الأئمة ، وقد اتسع نشاط فرقة الإباضيّة في البصرة اتساعاً ملحوظًا التي تعدُّ المركز الأول للإباضية ويرجع ذلك الفضل كلُّه إلى سياسة جابر الذكيّة، ولاستعماله مبدأ التَّقيّة الدّينيّة، وحُسْنِ اختياره الأعوان والدُّعاة، الذين كان يرسلهم إلى الأقاليم الإسلاميّة ناشرين معتقدات الإباضية سرّا وعلانية .

ثانياً: نظرة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ودراسته المستوعبة لمشكلات المناطق بالسُّلطة المركزية، من حيثُ القوَّةُ والضَّعف، فعندما أدرك أبو عبيدة أنَّ الدَّولة الأمويَّة في طريقها إلى الزوال، طلب من أتباعه الاستعدادَ للقيامِ بالثَّورة، ولم يفكِّرْ في أنْ تكونَ الثّورة في البصرة، على الرُّغم من أنَّها تُعدُّ المركز الأم للحركة الإباضيّة؛ نظرًا لقربها من مراكز الحكم القويّة، ووجود عدد كبيرٍ من الأحزاب الأُخرى.

ثالثاً: القيادة الجماعية للدعوة الإباضـيّة؛ التي تكوّنت من مجموعة من المشـايخ، الذين شكّلوا مجلس شورى مكوّناً من أشـخاصٍ ذوي قدراتٍ تنظيميّة هائلةٍ لمسـاعدة القائد أبي عبيدة، من أمثال:" ضـمام بن السـائب"، و" أبي الحر بن حصـين"، و "حاجب" الذي وُكِلتْ إليه جميع الأنشطة العسكريّة.

رابعاً: القدرة الفكريّة المسـتنيرة، التي تمتع بها دعاة الإباضـيّة؛ لأَجْلَ جذب قلوب الناس لمذهبهم، وقدراتهم الكلاميّة الخطابيّة المميّزة بحُسن التّعبير، وبلاغة التّحليل، وجمال الشّرح، وسهولةِ الإقناع وحسن التصرف.

خامساً: الإخلاص و الولاء غير متناهي الحدود ، لقادة الحركة الإباضيّة من الأتباع والأفراد، الذين نذروا حياتَهم في سـبيل الدعوة إلى معتقداتهم الدينيّة والفكريّة، من دون أيّ دوافع أخرى، أو رغباتٍ ذاتيّة اجتماعيَّة، أو ماديَّة، من أمثال سلمة بن سعيد وغيره.

سادساً: صـلابة الدُّعاة في المرحلة الأولى، مرحلة السّرّ والكتمان والتَّخفي، أو مرحلة التَّنظيم السّـريّ، على الرُّغم من تعرُّضـهم لصـنوف العذاب الكثيرة، وظهر ذلك واضـحاً من مواقف الدُّعاة الصَّلبة، وعدم التَّصريح بوجود مثل هذا التنظيم؛ ممَّا جعل السُّلطتيْن الأمويّة والعباسيّة لا تعير أيَّ اهتمامٍ سياسيٍّ ولا عسكريٍّ لهذه القوة المتنامية الصاعدة في السّرّ و الخفاء.

سابعاً: ونلحظُ أنّ الحركةَ الإباضيَّةَ استطاعتْ – بهذا الدّهاء والذّكاء، وتلك الحنكة السياسيّة، وذاك الوعي الفكريّ– أنْ تقيمَ دولتيْن، إحداهما في المغرب، والأخرى في المشرق – عُمان– ، لكن القيادة الدّينيّة والسّياسيّة لهاتين الدَّولتيْن – في البداية – كانت في البصرة ، التي جعلوها مركز الإباضـيّة الأوَّل، وبذلك، تكون قد بدأت مرحلةٌ جديدةٌ منَ الصِّـراع العباسـيّ الإباضـيّ، الذي لم ينتهِ بمقتل الإمام المُنتخب أبي الخطَّاب في معركة تاورغا سـنة ١٤٤ هجرية/٧٦١م على يد القائد العباسـيّ محمد بن الأشـعث الخزاعي، وقد تجدّد هذا الصـراعُ إثرَ قيام الدَّولة الرُّسـتميّة، التي أصـبحت مركزاً للدعوة الإباضـيّة وصـمدتْ أمامَ تحديات الدّولة العباسـيّة، وحلفائهم من الأغالبة .

الهوامش:

- ❖ الأحنف بن قيس: من حكماء و وجهاء البصرةالأحنف بن قيس بن معاوية بن الحصين التميمي البصري، سيد تميم البصرة كلها، أحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. يضرب له المثل في الحلم، قال الذهبي عنه:الأحنف بن قيس ابن معاوية بن حصين، الأمير الكبير، العالم النبيل أبو بحر التميمي، أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل.(الذهبي، ١٩٨٨، ج١،ص٨٩).
- ❖ كان هناك عدد من زعماء الخوارج قد اعتزلوا قتال علي لأنهم كانوا يشكون في صواب ذلك لكن هذا الشك انقطع باليقين بعد تنازل الحسن لمعاوية، أي أن بني أمية كفار وقتالهم واجب حسب وجهة نظر الخوارج.(ابن كثير,١٩٧٤، ٨،١٩/٢٢).
- ❖ الحرورية نسبة إلى قرية حروراء القريبة من الكوفة.(ياقوت،١٩٩٥،ج٤،ص١٤٥)
- ❖ البلجاء: أحدى نشيطات الخوارج القعدة في البصرة.(الدرجيني,د.ت،٢/٢١٦)
- ❖ الجبار العنيد: المقصود به عبيد الله بن زياد والي البصرة للأُمويين.(الدرجيني,د.ت،٢/٢١٦).
- ❖ أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي البصري: لم يكن أبو عبيده أصيلاً في بني تميم، فهو مولى، وُلد فيهم، وكان ميلاده في البصرة العاصمة العلمية الكبرى في ذلك الوقت، وكان أبو عبيده زنجياً أسود اللون، كالليل أعور فقيرا، يقتات بعمل العسف، ويصنع منه القفاف، فلقب بالقفَّاف، وكان بالغ الذكاء، قوي الحفظ ذا شخصية علمية شغوفة بالعلم، كثيرِ الورع والتقوى. (دبوز، 1963 3/١٥٠-١٥١) يعد أبوعبيدة من كبار علماء الإباضيّة، وأخذ أصول المذهب عن جابر بن زيد، وصار مَرجعاً تُشَدُّ إليه الرِحال (أبو زكريا،١٩٩٢،٥٥) واتَّصف بالزُّهد مع غزارة العلم (الدرجيني، د.ت،2/٢٣٨-٢٤٠)وكان أبو عبيدة معلماً بارعاً ومربياً، ماهراً، مخلصاً، واعتنى بتثقيف تلاميذه من المغرب، والمشرق، ورسّخ الإباضية في نفوسهم، وغرس أواصل المحبة بينهم، بالعدل والمساواة (دبوز,١٩٦٣،ج٣،ص ١٨٩).
- ❖ سلمة بن سعيد: يجمع المؤرخون أن سلمة بن سعيد هو أول داعٍ إباضي وصل المغرب مما يضعف رواية ابن حوقل، التي تتحدث عن انتقال عبد الله بن وهب الراسبي ،و عبد الله بن أباض إلى جبل نفوسة. (ابن حوقل،١٩٩٢، ٤٣).
- ❖ عبد الرَّحمن بن رستم بن بهرام: أجمع المؤرّخون على أنَّ ابن رستم من أصل فارسي وذكر ابن خلدون أنَّه من نسل رستم قائد الفرس في معركة القادسية (ابن خلدون، ١٩٩٩،٤/١١٣)، وهناك من ينسبه إلى بهرام كور أحد أكاسرة الفرس (سالم، ١٩٩٣، ٤٥٢).

والبكري بنسبة إلى سابور ذي الأكتاف الملك الفارسي بينما ترجع تواريخ الخوارج صلته بكسرى أنو شروان ملك الفرس، وتتحدث تواريخ الإباضيَّة تحدُّثًا مضطربًا عن نشأة عبد الرحمن، وتورد ما يشير إلى أنَّ أمر المغرب سيؤول إلى الفرس، وتُصوِّرُ رستم والد عبد الرحمن على أنَّه يُدرك النبوءة، التي سوف تتحقق على يدِّ ذريته، فانتقل إلى العراق، ومنها إلى مكة، على أمل الرحيل إلى المغرب؛ لكي تتحق نبوءته، وفي رواية ابن عذاري عن نشأة رستم، وابنه عبد الرحمن بالحجاز، أكثر قبولاً؛ فهو يذكر أنَّ بهراماً والد رستم كان من موالي عثمان، وعندما توفي رستم والد عبد الرحمن تزوّجت أمُّه من أحد الحجاج المغاربة، الذي اصطحبه إلى بلاد المغرب،(اسماعيل، ١٠٨،١٩٧٣). وهناك رواية أخرى تقول: " بأنَّه حجَّ مع أبيه، فمات أبوه في الحجاز، وتزوّجت أمه رجلاً من القيروان، فذهب معها إلى القيروان، وأول من تلقى مذهب الإباضية على سلمه بن سعيد، وهو من حملة العلم، الذين بعثهم سلمة إلى البصرة، ومن الأئمة المشهورين في محل التعظيم والإجلال عند الأباضية (الصلابي١٣٧،١٩٩٨) والمرجّح أنَّ وصول عبد الرحمن إلى المغرب حدث في أواخر القرن الأول الهجري، وعندما قدم سلمة بن سعيد يدعو للمذهب الإباضي في المغرب، كان والده رستم شاباً يافعاً (اسماعيل، ١٠٨،١٩٧٣).

- أبو الخطاب: هو عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميدي اليمني. زعيم ديني و قائد عسكري شجاع محنك من أهل الرأي(أبو زكريا، ٢٥٣،١٩٨٢) و كان من سكان المغرب الأوسط استطاع بحنكته استمالة عدد كبير من السكان الذين انضموا تحت لوائه و بايعوه(سالم، ١٩٩٣، ٢٥٣).
- ذكر الباروني صاحب الأزهار الرّياضيّة، فقال:" اتفقت الإباضية على أنْ يبايعوا الحارث بن تليد إماماً عليهم، فقام الحارث باحتلال طرابلس وبقية ليبيا، ولكنه قُتِلَ غِيلةً على أيدي أعوان عبد الرحمن بن حبيب، وإلى طرابلس العباسيّ، وبُويع بعده أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري إماماً للاباضيّة (الباروني،٣٥،١٩٨٧).
- الخطة تقضي بأنْ يأتي كلُّ مَن حضر البيعة برجال قبيلته وأعوانه، ومعهم أسلحتهم موضوعة في أكياس التبن على ظهور الجمال، ويدخلون المدينة بوصفهم تجارا، فإذا دخلوا المدينة يشهرون السلاح، فيخرج إليهم أعوانهم من داخل المدينة، الذين كانوا على علمٍ مُسَبَّقٍ بالخطة، وبالموعد المحدد. (أبي زكريا،١٩٨٢، ٥٧).
- صوَّرت معظمُ المصادر الإباضيَّة أبا الخطَّاب بأنَّه المدافع عن أعراض المسلمين، فقد ذكر الرقيق عن أبي حسّان " أنَّ رجلاً من الإباضيَّة دخل القيروان، فرأى أناساً من الورفجوميين قد أخذوا امرأة، وكابروها على نفسها، وهي تستغيث، وهو ينظر والناس

ينظرون، فترك حاجته التي أتى فيها، وخرج حتى أتى أبا الخطاب، فأعلمه الذي رأى، فخرج أبو الخطاب، وهو يقول: " لبيك اللهمَّ لبيك" (الرقيق،د.ت١٤١- ١٤٢)". هناك رواية أوردها الدرجيني – إنْ صـــحَّتْ – تضـــفي على أبي الخطاب صـــفه الأولياء، وأصـــحاب الكرامات الخارقة للمألوف فقال: "وقد ذكر بعض أصـــحابنا أنَّ امرأة من أهل القيروان طلبها ورفجومه، فصـــاحت في القيروان: يا أبا الخطاب أغثني، فمد الله في صـــوتها، فســـمعها أبو الخطاب في مدينة طرابلس، فقال لها: "لبيك يا أختاه" (الدرجيني، د.ت، ح١، ص ٢٧)". وفي رواية أخرى أنَّ امرأة من نساء القيروان كتبت بطاقة إلى أبي الخطاب تشـــكو إليه جور ورفجومة فقالت: "أما بعدُ، يا أمير المؤمنين، فإنَّ لي بنتاً لم أحرزها إلا في حفرة حفرتها تحت ســـريري؛ مخافة عليها من الورفجوميه أن يفســـدوها" فوصلت البطاقة أبا الخطاب، وهو يتوضأ، فقرأها، وجعل يبكي. (أبو زكريا، ١٩٨٢،٦٠).

- ❖ أمر أبو الخطاب أهل عسكره أن لا يتبعوا مُدْبِراً، ولا يجهزوا على جريح، وأن لا يأكلوا من أموالهم، وأن لا يتعرَّضوا إلى شجر وزرع، فعجب الناس لعدل أبي الخطاب وسيرته وطاعة أصحابه له، فيما يأمرهم به، وينهاهم عنه، ويقال أنَّ امرأتين خرجتا من القيروان بعد انتهاء المعركة، فنظرت أحداهما إلى القتلى من في ثيابهم كأنهم رقود، فقالت لصاحبتها انظري إليهم كأنهم رقود، فسمي ذلك الموضع رقاد إلى اليوم إنَّ هذا التَّعامل المثالي الذي اتصف به أبو الخطاب في المصادر الاباضية لم يرد ما يعاكسه في المصادر الأخرى التي ذكرت أخلاق أبي الخطاب باعتدال، ودون مبالغة، مما أكسبه شهرة واسعة وسمعة طيبة في بلاد المغرب.(الدرجيني،د.ت، ٣١/١).
- ❖ خرج محمد بن الأشعث في أربعين ألفاً عليهم مائه وثمانية وعشرون قائداً من تحت يد ابن الأشعث، منهم ثلاثون ألفاً من خراسان وعشرة آلاف من الشام وقيل ألفان فقط من الشام وقال المنصور: "إن حدنث به حدث كان الأغلب أميرهم بعده" (ابن الأبار، 1985، ٦٩/١). وكان محمد بن الأشعث قبل ذلك قد أنفذ جيشاً من قبل إلى المغرب بقيادة أبي الأحوص لكن هذا الجيش هزم وعاد إلى مصر مغلولاً لذلك كتب المنصور لابن الأشعث كي يخرج بنفسه (الناصري،1954،1/ ١٢٧)
- ❖ توجه عبد الرحمن إلى قبيلة لمايه لحلف قديم كان بينه وبينهم رغم أن قبائل لمايه كانت لا تؤمن بالفكر الاباضي (الميلي ١٩٦٣ ،2 /٥٧). وفي أثناء الطريق وبعد ما قطعوا مسافة طويلة مات فرس عبد الرحمن فدفنوه حتى لا يعلم بموته أحد قد يكون يطاردهم فيطمع فيهم ويتتبع أثرهم، وبسبب طول المسافة فقد أحس عبد الرحمن بالتعب لكبر سنه وشيخوخته، فاضطر عبد الوهاب وعبده إلى حمله على ظهريهما بالتناوب فإذا حمله العبد قال عبد الوهاب: "إن أدركنا العدو فلا تحط أبي عن ظهرك" وإذا تعب العبد وحمله عبد الوهاب قال

العبد له كما قال له. (الدرجيني،د.ت،2/ ٣٥- ٣٦). ويبدو أن عبد الرحمن سلك في سيره الطريق الجنوبية المارة بقسطيلية ومن المحتمل أنه اخترق شمال وادي سوف، مغرباً على شمال تيفورت واجتاز جبال بني راشد غرباً ثم انحرف شمالاً شرقي مدينة آفلو، وغربي وادي شلف حتى نزل وادي سوفجج الذي ينبع من سفح جبل سوفجج ويقع بين مدينتي سلاله شرقاً والسوفر غرباً وجنوب مدينة تاهرت وكان هذا الجبل في غاية المنعة والحصانة فنزل عبد الرحمن وتحصن فيه (سالم،١٩٩٣، ٤٥٣- ٤٥٤.)

- ❖ حفر الخندق حول المعسكر كان طريقة في الدفاع استخدمها المهلب ابن أبي صفره في حرب الأزارقة؛ لأنه كان يخشى من الهجوم المباغت في الليل، الذي كان يقوم به الخوارج دائماً قيامًا مفاجئا، فينالوا من أعدائهم، وقد يؤدي ذلك إلى هزيمة أعدائهم، وهذا الهجوم المفاجئ ليلاً عُرف بمصطلح "البيات". (الطبري،١٩٨٧ 2/ ٢١١).
- ❖ حدود الدولة الرستمية: يحدها من الشمال تلول منداس إلى قرب عيليزان، ويذهب الخط جنوباً من هناك إلى فرندة، وينعطف شرقي جبل عمور، ومن هناك إلى وطن مزاب، وإلى ورقلة، وينبعث الخط من الناحية الشرقية إلى تيسميسل والسرسو، ويذهب مبعداً إلى ثنية الأحد، وإلى القصر البغاري مشرقاً وأعالي وادي شلف: ويذهب جنوباً شرقي الأغواط إلى تقرت ووادي ريغ، وبالجملة فإنَّ هذه الدولة، قد استولت على جميع التراب الجزائري الحاضر ما عدا ناحية الزاب شرقاً، وتلمسان غرباً (الجيلالي، ١٩٨٢،٢/ ١٦٦- ١٦٧).
- ❖ بايع مشايخ الاباضية عبد الرحمن بن رستم، لدينه وسابقته ومكانته وصفاته الحميدة التي تحلى بها وكونه أحد حملة العلم الخمسة الذين تتلمذوا على يد ابن أبي كريمة شيخ الاباضية في البصرة كما أن ابن رستم كان عامل أبي الخطاب على القيروان فضلاً عن أنه ليس له قبيلة تمنعه إذا غير أو بدل، ومن ثمة ارتضته القبائل لتتحاشى تسلط أحداها على الأخرى إذا ما ظفر رئيسها بالإمامة (اسماعيل،١١٢،١٩٧٣).
- ❖ أبو حاتم: يعقوب بن لبيب الملزوزي الكندي بالولاء المعروف بأبي الحاتم الاباضي، ثار على رأس جمع كبير من البربر سنة ١٥١هـ وهزم جيوش عمر بن حفص أمير أفريقية وحاصر القيروان، وظل يغزو ويقتل في البلاد متخذاً جبل نفوسه قاعدة له حتى بعث إليه أبو جعفر المنصور القائد العباسي يزيد بن حاتم بن المهلب بن ابي صفرة الازدي على رأس جيش كبير تمكن من القضاء على أبي حاتم وأصحابه بعد معارك طاحنة. (أبو زكريا،١٩٨٢، ٧٣).

المصادر:

- القرآن الكريم .
- ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضـــاعي المعروف بابن الأبار، (ت، ٦٥٨)._ الحلــة الســـيراء؛تحقيق،حســـين مؤنس._ ط ٢._ القــاهرة: دار المعارف،١٩٨٥م.
- ابن الجوزي،جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي (ت ٥٩٧ هـــــ)._ تلبيس ابليس._ القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
- ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت ٨٠٨هـ).
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب، والعجم، والبربر ،ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون، اعتنى بتصليح ألفاظه والتعليق عليه، تركي فرحان المصطفى._ ط ١._ بيروت: دار إحياء التراث، ١٩٩٩ م /١٤١٩ هـ .
- ابن حوقل، أبـو القاسم بن حوقل النصيبي (ت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري)._ صورة الأرض._ بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢م.
- ابن عذاري، المراكشـــي (ت أواخر القرن الســـابع الهجري)._ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،ج ١؛تحقيق ج.س. كولان وإليفيبر وفنال._ط ٥._ بيروت: دارا لثقافة، ١٩٩٨م/١٤١٨ هـ.
- ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت ٥١٧ هــ)._ –أ– تاريخ دمشـق الكبير._ دمشـق: المكتبة الظاهرية. ب – تهذيب تاريخ مدينة دمشـق الكبير._ هذبه ورتبه عبد القادر بدر._ بيروت: دار المسيرة.
- ابن كثير، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ):
- . البداية والنهاية._ط٢._بيروت: مكتبة المعارف ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
- .مختصـــر تفســـير ابن كثير؛ اختصـــار محمد كريم راجح._ط٢._بيروت: دار المعرفة ١٤٠٧هـ/١٩٧٤م.
- أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر (ت في النصـــف الثاني من القرن الرابع)._ كتاب ســـير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبو زكريا؛ تحقيق إسماعيل العربي._ ط ١._ دار الغرب الإسلامي ١٩٨٢م/١٤٠٢هـ.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـــــ)._ النقائض: نقائض جرير والفرزدق._ بيروت: مطبعة بريل، ١٩٧٥م.

- الاسفرايني، الإمام الكبير أبي المظفر الاسفرايني (ت ٤٧١ هـ)._ التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين؛ تحقيق كمال يوسف الحوت._ ط ١._ بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٣م/١٤٠٣هـ.
- الأشعري، الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت ٣٣٠ هـ)._ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين؛ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد._ بيروت،صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٩٥م/١٤١٦هـ.
- البغدادي، الإمام عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت٤٢٩ هجري)._ الفرق بين الفرق وبيان الناجية منهم؛ تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة._ بيروت:دار الجيل، دار الآفاق، ١٩٨٧م/١٤٠٨هـ.
- البكري، أبو عبيدة البكري (٤٨٧ هـ)._ المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب وهو جزء من كتاب المسالك و الممالك ._ القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.
- الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني (ت ٦٧٠ هجري)._ طبقات مشايخ المغرب؛ تحقيق ابراهيم طلامي.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هجري)._ تاريخ الاسلام و وفيات المشاهير و الأعلام؛ تحقيق محمد عبد السلام تدمري._ ط ١. _ بيروت:/ دار الكتاب العربي، ١٩٨٨م/١٤٠٨هـ.
- الرقيق، القيرواني (ت في النصف الأول من القرن الخامس الهجري)._ تاريخ إفريقيا والمغرب؛ تحقيق المنجى الكعبي._ تونس: رفيق السقطي – شارع فرنسا.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت ٥٤٨ هجري)._ الملل و النحل؛ تحقيق محمد سيد كيلاني._ بيروت: دار المعرفة.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)._ تاريخ الأمم والملوك؛ تحقيق محمد "أبو الفضل" إبراهيم._ بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية،١٩٨٧م/١٤٠٧هـ.
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري(ت٣٥٠هجري)._كتاب ولاة مصر ._ ط ١.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد النحوي (ت ٢٨٥ هـ)._ الكامل في اللغة والأدب؛راجعة أحمد محمد كنعان._ ط ١._ بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٩٩م.
- الناصري، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣١٩هـ)._ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى؛ تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري._ الدار البيضاء: مطبعة دار الكتب، ١٩٥٤م.

❖ ياقوت، الإمام شـهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ)._ معجم البلدان._ ط ٢._ بيروت: دار صادر، ١٩٩٥م.

❖ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضـح اليعقوبي البغدادي (ت ٢٨٢ هـ.٨٩٥م) تاريخ اليعقوبي؛ علق عليه خليل المنصور._ ط ١._ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م/١٤١٩هـ.

المراجع :

❖ أبو زهرة، محمد._ تاريخ المذاهب الإسلامية: في السياسة والعقائد._ دار الفكر العربي.

❖ أبو مصـطفى، كمال._ جوانب من حضـارة المغرب الإسـلامي._ ط ١._الإسـكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٧مـ.

❖ إسـماعيـل، مـحـمـود ،الـخـوارج فـي الـمـغـرب الإسـلامـي: ليبيا،تونس،الجزائر ،المغرب،موريتانيا._ القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٧٦م.الحركات السرية في الإسلام: رؤية عصرية._ ط ١._ بيروت: دار القلم،١٩٧٣مـ.

❖ الباروني، سليمان باشا._ الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية._ سلطنة عمان: وزارة التراث القومي، ١٩٨٧م/١٤٠٧هـ.

❖ البكاي، لطيفة._ حركة الخوارج: نشـأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي._ ط ١._ بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ٢٠٠١م.

❖ بل، ألفرد._ الفرق الإسـلامية في الشـمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم؛ ترجمة عبد الرحمن بدوي._ ط ٢._ بيروت: دار المغرب الإسلامي، ١٩٨١م.

❖ جفـال، علي._ الخوارج تـاريخهم وأدبهم._ ط ١._ بيروت: دار الكتـب العلميـة، ١٩٩٠م/١٤١١هـ.

❖ جلي، أحمد محمد أحمد._ دراسـات عن الفرق في تاريخ المسـلمين: الخوارج والشـيعة._ الرياض: شركة الطباعة العربية السعودية، ١٩٨٦م/١٤٠٦هـ.

❖ الجيلالي،عبـد الرحمن، محمـد._ تـاريخ الجزائر العـام._ ط ٤._ الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٢م/١٤٠٢هـ.

❖ خليفات،عوض، محمد:

. النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقية في مرحلة الكتمان._ ط ١ الأردن،عمان، ١٩٨٢م.

❖ . نشأة الحركة الإباضية._ عمان، ١٩٧٨م.

- دبوز، محمد، علي._ تاريخ المغرب الكبير._ ط ١._ القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي و شركاه، ١٩٦٣م/١٣٨٣هـ.
- الريس، محمد ضياء الدين._ النظريات السياسية الإسلامية._ ط ٣._ مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٠م.
- سالم، السيد عبد العزيز._ تاريخ المغرب في العصر الإسلامي._ الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣م
- السالمي، أبو محمد عبد الله بن حميد._ مشارق العقول؛ تحقيق عبد الرحمن عميرة._ ط ٤١._ بيروت: دار الجيل، ١٩٨٩م.
- الصلابي، علي محمد، محمد._ عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهورالخوارج._ ط ١._ الأردن،عمان: دار البيارق، ١٩٩٨م/١٤١٨هـ.
- طعيمة، صابر._ الإباضية عقيدةً ومذهباً._ بيروت: دار الجيل، ١٩٨٦م.
- عبد الحميد، سعد زغلول._ تاريخ المغرب العربي: دولة الأغالبة والرستميين وبني مدرار والأدارسة، حتى قيام الفاطميين._ الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٩م.
- الغرابي، مصطفى علي._ تاريخ الفرق الإسلامية ونشاة علم الكلام عند المسلمين._ ط ٢._ ميدان الأزهر: محمد علي صبيح، ١٩٥٨م/١٤٧٨هـ.
- معمر، علي يحيى._ الإباضية بين الفرق الإسلامية: عند كتاب المقالات في القديم والحديث._ ط ٤._ سلطنة عُمان: مطبعة الألوان، ٢٠٠٠م/١٤٢١هـ.
- مؤنس، حسين._ معالم تاريخ المغرب والأندلس._ ط ١._ القاهرة: دار ومطابع المستقبل، ١٩٨٠م.
- النجار، عامر ._ الخوارج: عقيدة وفكر وفلسفة._ ط ١._ بيروت: مكتبة القدسي، ١٩٨٦م/١٤٠٦هـ.
- الهلالي الميلي، مبارك بن محمد._ تاريخ الجزائر في القديم والحديث._ الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية، ١٩٦٣م.